أيمن العتوم

هذه سبيلي

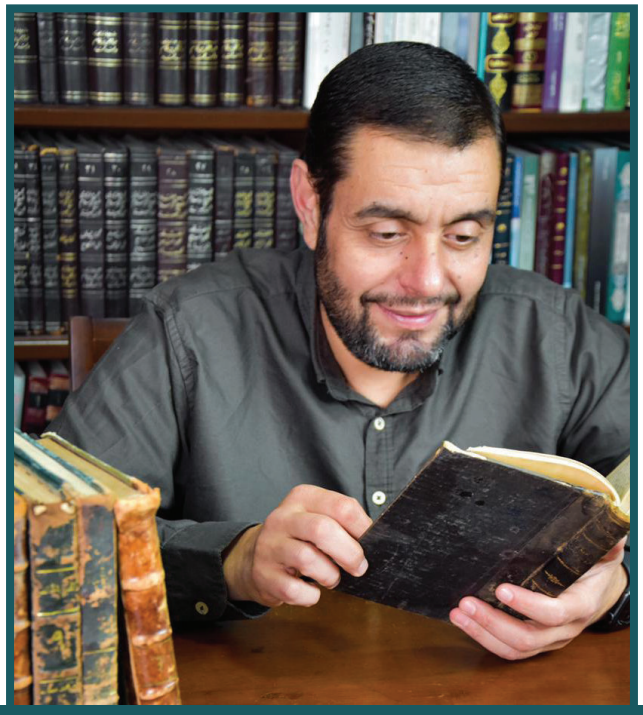

تجربتي في الحياة والكتابة

٢٠٢١

وأما بنعمة ربك فحدث

الضّحى، الآية: ١١

شكر خاص

أتقدم بالشكر والتقدير

إلى الأستاذة/ صفاء الوضاحي

على تصميم الكتاب

تمهيد:

هل يُمكن أنْ يكون في هذه الصّفحات ما يُفيد؟! لا أدري. حياتي عاديّة جِدًّا، وأنا إنسانٌ بسيطٌ، فلماذا عليّ أنْ أُرهِق القارئ بتتبُّع هذه الصّفحات من هذا السِّفْر المُبعثَر؟ ما الجديد الّذي يتوقُ إليه القارئ وسيجده عندي دون سِواي؟ غيرَ أنّني إذا امتلكتُ الجرأة لأقول إنّ في تجربتي بعضَ الفائدة، فعليّ إذًا أنْ أختار منها ما كان نافِعًا، ومُوجَزًا؛ فلا أحدَ يمتلك الوقت الكافي لكي يقرأ كلّ ما فعله الآخَرون!

حياتنا تُشبه كما قال الكاتب المصريّ جلال أمين في سيرته الذّاتيّة (ماذا علّمتْني الحياة؟) قطعةً من الحجر مركوزةً أمام نَحّات، والنّحّات الجيّد هو الّذي يستخرج من باطن هذا الحجر الأصمّ تمثاله النّاطق بما يُريد. أنا وقفتُ أمام حَجَري هذا في هذه الصّفحات الّتي بين أيديكم، وأعملتُ فيه مِعولي، أزلتُ القِطع الّتي لا تُعطي الصّورة الحقيقيّة، ومضيتُ في ذلك حتّى خرجتُ لكم بهذه الصّورة الّتي اجتهدتُ أنْ تكونَ أقربَ ما تكون إلى نُسختي الحقيقيّة. ومع ذلك لا تُوجدُ نسخةٌ واحدةٌ منّا تظلّ ثابتة؛ فنحن نتبدّل كلّ يوم، الشّخص الّذي أكونه اليوم مختلفٌ بالضّرورة عن الشّخص الّذي كنته أمسِ، وعن ذلك الّذي كنته أوّلَ من أمس... كلّ يوم يموتُ فينا شيءٌ ممّا نريدُ أو لا نريد، ويُولَد شيءٌ آخَر. أحاول أنْ يكون ما يولد قابلاً لأنْ يكون مُفيدًا ونافِعًا على نحوٍ يُرضي هذه النّفس الّتي تهرم في كلّ لحظة، أحاول أنْ أجدَ خيرًا في ذلك الّذي كُنْتُه في مراحل مُتعدّدة من حياتي حينَ أقفُ على نهاية الطّريق وأنظر إليّ بعدَ زمنٍ طويل.

بقراءةٍ سابرة لسِيَر الخالدين، ستجد أنّ لكل عبقريّ خوفَه؛ خوفه العميقَ الّذي يدفعه إلى النجاح، فعلى سبيل المِثال: كان خالدُ بنُ الوليد يخاف على السّيف، والبُخاريّ على الحديث، والمُتنبّي على القصيدة،

والمَعرّي على سؤال الوجود، وابن عربي على سؤال الروح، وابن رُشْد على سؤال الفلسفة... وجميعهم خَلَدُوا بسبب ذلك الخوف؛ أما أنا فلا زلت أبحث عن خَوْف أَلِيقُ به!

هل قلتُ: إنّني ما زلتُ أبحث؟ وهل قلتُ: إنّه لا جدوى؟ وهل قلتُ: إنّ كلّ ما هو هنا في هذا الكتاب عاديّ؟ صحيح. ولكنْ مهلاً؛ بعضُ القُرّاء يريدُ أنْ يعرفَ ما أراه عاديًّا ليجدَ فيه بصيصًا يقودُه – ربّما – في خُطاه الحائرة إلى الغاية الّتي يريد. وإذًا، فلن أُخيّب ظنّ هذه الفِئة بإذن الله.

سأصحبكم في كتابٍ يُعرَض بطريقةٍ مُختلفة؛ أبسطُ فيه تجربتي في الحياة بأسلوبِ المشهديّات المُنتقاة، والسّرديّات المُكثّفة، والمواقف المُنتَجبة، وآمُلُ أنْ يكون مُلهِمًا لكم، مُعينًا على تحدّي الذّات والصّعوبات، واختِطاط الدّرب الّذي نرسمه لأنفسنا، لا ذلك الّذي يرسمه الآخرون لنا نِيابةً عنّا.

لم أتوقف عن اعتبار نفسي تلميذًا لحظةً واحدة، أنْ يكون لي أستاذٌ من النّاس أو الكتاب أو الطّبيعة أو التّجرِبة هو أسلوبي في هذه الحياة، التّوقُّف عن التّعلُّم موت، وانتِظار آراء الآخرين فيما نفعل موتٌ آخَر، وأنا قررّتُ أنْ أكون ما أريدُ أنْ أكون. سائرًا في الدّرب، ليس يَعنيني الوصول إلى الغاية بِقَدْر ما يَعنيني الاستمرار في السّير؛ فنحن تُشكّلنا دروبُنا الّتي نَمشيها.

ولكنْ مهلاً أيّها السّائر الغريب: أتُدرِكُ أيَّ شيءٍ تفعل؟ وما هذا الّذي تنفثُه في هذه السّطور؟ وعلامَ يطول حُزنك؟ إنّه على نفسكَ الّتي تراها تنسرب من بين يديكَ انسرابَ الماء في الثّرى، وتنكسر في الفضاء اللاّنهائيّ انكِسار الضّوء، فتحاول – عبثًا – أنْ تلمّ ما تطايرَ منها شَعاعًا في الآماد وفي الوهاد. وإذًا فَلْيطُلْ حُزنُك؛ فإنّ صَداه سوف يبلغُ ما بلغَ الحرف الّذي تكتبه أرواحَ مَن قرؤوه، وليكنْ ما أراد الله، فإنّ عِلمه سابقٌ على كلّ شيء.

الفصل الأول

الطُّفولة

عينانِ دَهِشتانِ وعالَمٌ حالِمٌ

في الثّانية من العُمر عام ١٩٧٣م

هٰذه سِيْرَتي ١

سَنَمْضِي مَعَا
رفيقَين مُنذُ الطُّفُولةِ حتّى الكُهولةِ ...
لا نستفيقُ مِنَ الحُلمِ حتّى نراه لنا قد سَعَى
ومنذُ عرفنا الحياةَ رأينا مَسالِكَها بَلْقَعَا
لَئِنْ نَبَتَتْ ضِحْكةٌ في القُلوبِ عَلى غَفْلَةٍ مِن صُرُوفِ الزَّمانِ
لَسَوْفَ تَحُولُ غدًا أدمُعا
ولكنّنا سوفَ نمضي... وهذي سبيلي...
ومَنْ عرفَ القَصْدَ لَنْ يَرجِعا

بينهما أربعون عامًا

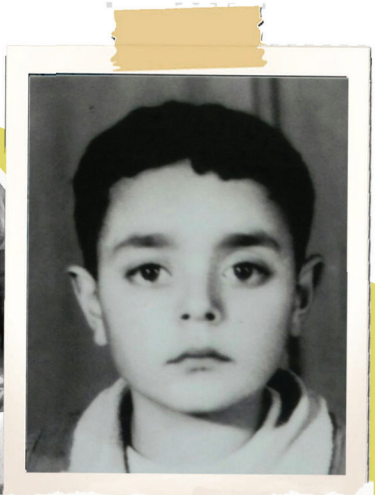

الطّفولة الأولى

(١٩٧٢م -١٩٨٣م)

أؤمن أنّني وُلِدتُ بنسخةٍ هي مختلفة تمامًا عن النُّسخة الّتي صِرتُها!! ليسَ لأنّنا - بشرًا - دائِمو التّحوّل، ولكنْ لأنّني خبأتُ نسخة الطّفولة منّي واحتفظتُ بها في إحدى زوايا عقلي، وما زلتُ أرجعُ إليها كي أرى كيف انبثقتُ منها وصرتُ تدريجيًّا إلى ما صرتُ إليه.

في الثّاني من آذار من عام ١٩٧٢م وُلِدت. كانت الشّمسُ في السّادسة صباحًا تُجاهد في إرسال أوّل خُيوطِها على القرية الوادعة، لم يكنْ هناك مُستشفى ولا سرير، ولا طبيبات أو مُمرّضات. كانتْ هناك غرفةٌ وحيدةٌ باردةٌ في بيت عمّي الأكبر - إذْ لم يكنْ أبي قد امتلكَ بعدُ بيتًا آنئذٍ - وكانتْ هناك فرشةٌ محشوّة بالصّوف وطشتٌ من الماء السّاخن هي كلّ ما تملكه أمّي من أجل أنْ تضعني. كانتْ ولادةً بين المطر والرّبيع، كانت الرّياح تتناوح فوق جِبال قريتي (سوف)، وهي تُحرّك سحابًا تستحثّه لمزيدٍ من بُكاء السّماء... مع دُفقة المطر تدفّقتُ من الرَّحِم، وخرجتُ إلى هذه الحياة، كانتْ قابلتي مسيحيّة، تلطّفتْ بي وبأمّي أيّما تلطّف، عجّلتْ بعدَ الغسيل بالقِماط الّذي لُفِفتُ به ووُضِعتُ إلى جانب أمّي من أجل أنْ تسقيني مع أوّل رَضعةٍ الحُبَّ والحياة.

وَهَا أَنَا جِئْتُ إِلى الحَيَاةِ فِي آذَارْ

شَهْرِ الهَوَى وَالزَّهْرِ وَالنَّوَّارْ

وَالجَدْوَلِ الرَّقْرَاقِ وَالرَّبِيعِ وَالأَطْيَارْ

فَأَوَّلُ الشُّهُورِ فِي أَفْرَاحِنَا آذَارْ

وَأَجْمَلُ الشُّهُورِ فِي أَعْوَامِنَا آذَارْ

آذَارُ ... يَا آذَارْ ...

يَا سَيِّدَ الشُّهُورْ

يَا فِتْنَةً تَمِيْسُ فِي دَلالِهَا

يَا نَغْمَةً تَعِيْشُ فِي حَنَاجِرِ الطُّيُورْ

وَيَا فَضَاءً يَنْشُرُ الأَطْيَابَ وَالبَخُورْ

يَا جَدْوَلاً مُوَشْوَشًا بِالنُّورْ

وَيَا بُحُورْ

وَهَا أَنَا أَبْدَأُ فِي الوُجُودِ رِحْلَتِي

وَأَحْمِلُ الأَيَّامَ وَالسِّنِيْنَ وَالتَّذْكَارْ

وَتَبْدَأُ الأَسْفَارْ

وَتَبْدَأُ (الجِنِّيَّةُ) اليَوْمَ بِتَعْلِيْمِي الهَوَى

وَالحُبَّ وَالأَشْعَارْ

في هـذا اليـوم سـقطتُ مـن قَـدَر الله لأسـير إلى قَـدَرِه في رحلـةِ الحيـاة؛ الحيـاة العابـرة. وكُلُّنـا غريـبٌ مُرتحـلٌ منهـا إلى مصيـره الأبـديّ.

في هـذا اليـوم تخلّـتْ نجمـةٌ مـن السّـماء عـن ضوئِهـا لي، ولقـد كتـبَ لي الله زمـنَ العُبـور في خضـمّ الرّيـاح العاتيـة والبحـار الهائجـة وأعطـاني سـفينةً قويّـةً وشِراعًـا عاليًـا وجعلنـي رُبّانَهـا؛ وقـال لي: إنْ كُنـتَ قائِـدًا حكيـمًا فسـتعبرُ إلى الضفّـة الأخـرى وتنجـو، وإنْ فاتَتْـك الحِكمـةُ فاتَتْـك النّجـاة.

منـذ الثـاني مـن آذار وأنـا أحـرِص عـلى ألاّ تتحطّـم سـفينتي وألاّ يتمـزّقَ شِراعـي؛ وقـد حاولـتُ ذلـك ومـا زلـتُ أُحـاول؛ لكـنّ أكثـر مـا كان يُخيفنـي هـو وِجهـة هـذه السّـفينة؛ كثـيرًا مـا كنـتُ أتسـاءل وأنـا في وسـطِ البحـر وأمواجُـه الطّاغيـة تحـاول أن تتغلّـب عـليّ: هـل أنـا في الاتّجـاه الصحيـح؟! كانـتِ الشـمسُ في بعـضِ الأيّـام تُـشرِق فـأرى أنّنـي أسـيرُ في الاتّجـاه الصحيـح بالفعـل، وكانـت السـماء تغيـمُ أحيانًـا والأفـق يكفهـرّ فتختلـطُ عـليّ الاتّجاهـاتُ حينَهـا، فأجلـسُ أنتظـرُ شروقًـا جديـدًا لأبـصر طريقـي وأعـرف غايتـي مـن جديـد.

لم يكــنْ هنــاك شيءٌ غــيرُ عــاديّ في طفولتــي. كنــتُ أنــا وأطفــال القريـة نلعـبُ في الطّرقـات، ونركـضُ في الحـواري، ونتسـلّق الأشـجار، وننـام في الجبـل في الصّيـف، ونسـتلقي عـلى الـتّراب، وننظـر في السّـماء الصّافيـة فنـرى عـددًا لا ينحـصر مـن النّجـوم فنبـدأ بعدّهـا، حتّـى إذا أعيانـا العـدّ نِمنـا، وكُنّـا نُشـكّل كـرات الثّلـج في الصّقيـع ونجعلهـا تتدحـرج مـن أوّل المُرتفـع إلى آخـره ونحـن نركـضُ معهـا وهـي تهـوي وتكـبر حتّـى تصبـح عملاقـة في القـاع، ونقـف إلى جانبهـا مُفتخريـن وهـي تعلونـا بضعفـين أو ثلاثـة... وكُنـا نلعـبُ (الدّواحـل) والسّـيجة، والأحجـار السّـبعة، وغيرهـا... ونـصرخ، ونتشـاجر، ونبكـي، ونُهـرَع إلى أمّهاتنـا نشـكو جرحًـا مـن زُجاجـةٍ مكسـورةٍ في الطّريـق، أو دمًـا نازِفًـا مـن حجـرٍ طائـشٍ رمـاه أحـد الصّبيـة... كانـتْ حيـاتي تمـضي عـلى هـذا النّحـو... ولا أذكـر أنّنـي مشـيتُ في الحـواري المُتربـة مـرّةً واحـدةً وأنـا أنتعـل حِـذاءً، ليـسَ لأنّـه لم يكـنْ لـديّ هـذا الحـذاء، ولكـنْ لأنّنـي كنـتُ أجـدُ متعـةً في المـشي حافِيًـا عـلى الحـصى حتّـى وإنْ كان الحـصى يلتهـبُ تحـتَ رجـليّ!

كان أولاد عمومتـي كثيريـن، وكان أطفـال الحـارة أكثـر، ولهـذا كُنّـا نبـدو قطيعًـا مـن الخِـراف الصّغـيرة حـينَ نسـير معًـا، أو جيشًـا مـن القِطـط الشّـقيّة حـينَ نتسـلقّ الحيطـان بشـكلٍ جماعـيّ، أو مجموعـةً مـن الذّئـاب

الشّرسة ونحن نعدو خلفَ أحدنا... كانتْ سندويشة الزّيت والسُّكّر المرشوش على خُبز (الشّراك) البلديّ ألذّ ما يُمكن أنْ نأكله. وماء الخابية بالكوز ألذّ ما يُمكن أنْ نشربه!

هل حدثَ شيءٌ مُفاجِئٌ لهذا الطّفل وهو بعدُ لم يدخل دائرة التّذكّر، كان ذلك في الثّالثة أو الرّابعة من عمري، رأيتُ أختي تطير من سطح بيتِ عمّي إلى زريبة الأغنام، ويرتطم رأسُها بالأرض ويسيل دمُها مُختلطًا بالتّراب، وتصرخُ في البداية ثُمّ يسكنُ صوتُها. أحدُ أقاربي الّذي هو في مثل سِنّها هو مَنْ كان يجرّ (السّطل) الّذي كُنّا نتناوب على الجلوس فيه، ويتناوب الآخرون على جرّه فوق سطح ليس حوله طفٌّ يحمي من الوقوع من فوقه. فَجَرَّها بقوّة في دائرةٍ لم يُسيطر عليها فطارتْ. كانت هذه أختي (أسماء) الّتي سبقتْني إلى الحياة، جِئتُ أنا بعدَها بعامٍ ونصفٍ، لا أذكر إذ طارتْ في ذلك اليوم الكثير، غير أنّني عرفتُ أنّهم أخذوها إلى المُستشفى وأنّهم خاطوا لها شَقًّا طويلاً يلفّ رأسَها بالكامل، وخمدتْ حركتُها فترةً طويلةً من الوقت إلى أنْ تعافتْ. حزنتُ كثيرًا. توقّفتُ عن اللّعب لأنّها لم تعدْ قادرةً على أنْ تلعبَ معنا. سيبدو للّذين سيقرؤون رواياتي بعدَ أنْ جاوزتُ سِنّ الأربعين أنّ هذا الموقف الّذي حدثَ أمامي وأنا ما زلتُ في الثّالثة من عمري سوفَ يكونُ له الأثر الكبير على كتاباتي في المستقبل. اليوم يُمكنكم أنْ تروا أختي (أسماء) وعلاقتي بها من خلال (سُميّة) في رواية (ذائقة الموت) وعلاقة (واثق) بها، ويُمكنكم أنْ تروها من خلال (آمنة) في رواية (أرض الله) وعلاقة (عُمر) بها.

******

الصّباحات الغائمة أكثر ما كان يُمتّعني في القرية، تعوّدتُ أنْ أستيقظَ صباحًا، سارتْ حياتي حتّى بعد أنْ كبرتُ على هذا النّحو

غالبًـا. كنـتُ أشـعر أنّ الكنـوز والأسرار كلّهـا مُخبّـأةٌ في الصّبـاح ولا سـيّما تلـك المُضَبّبـة منهـا، حيـثُ تـسري أرواحٌ لا تراهـا ولكنّـك تشـعر بهـا، تتغلغـل في روحـكَ وتُشـعركَ بالانتِشـاء، كان سِرّ الصّفـاء يختبِـئ في تلـك الصّباحـات، وسِرّ المعرفـة، وسِرّ الإنجـاز، وسِرّ العِلـم، وسِرّ النّجـاح... وكلّ سِرٍّ يُمكـن أنْ يرتقـي بـكَ كان مخبـوءًا هنـاك... ولذلـك كنـتُ لا أُفـوّت هـذه الصّباحـات أبـدًا، وكُنـتُ أشـعر أنّهـا نِعمـةٌ حُـرِمَ منهـا الكثـيرون، وكنـتُ أدعـو ألاّ أُحرَمهـا إلى آخـر أيّامـي.

بيوتنـا أكثرهـا مـن الطّـين، بيـت جـدّتي لأمّـي كان كذلـك، وكنـتُ أراهـا وهـي تُجـدّد طينـه تـأتي بـه مـن (المحافـير) وتخلطـه مـع القـشّ ليبـدو جديـدًا. وكانـت جـدران الطّـين سـميكة قـد تصـل إلى نصـف مـتر، وكان ذلـك يـؤدّي إلى أنْ تبـترد البيـوت في الصّيـف مـن الدّاخـل، وتحتفـظ بالحـرارة في الشّـتاء، وكُنّـا نجلسُ فيهـا في الصّيـف فنشـعر بتلـك الـبرودة المنعشـة كأنّ (مُكيّفًـا) يعمـل في أرجائهـا.

غـير أنّ هنـاك بيوتًـا أخـرى كانـتْ مـن حجـارةٍ قديمـة، وكانـتْ مميّـزة، بقوسِـها الحجـريّ الّـذي يعلـو المدخـل، والنّوافـذ الّتـي تحمـل قوسًـا آخـر أصغـر في أعلاهـا، وكانـتْ مـن الدّاخـل عاليـةً، وسـقفُها مسـنودًا بطـينٍ وجـذوع كبـيرةٍ مـن الخشـب، ولقـد رأيـتُ بيوتًـا مـن هـذا الصّنـف في القريـةً قـد تنكّـر لهـا أصحابُهـا، أو هجروهـا بالمـوت أو بالرّحيـل، ولم تُسـكَنْ مـن بعدِهـم حتّـى نبـتَ العُشـب عـلى دمنتهـا، وغَطّـى السّـقفَ الظّاهـر للسّـماء مُسـطّحٌ مـن العشـب الكثيـف الّـذي نـما لطـول العهـد بالغيـاب!

قبـل أنْ أبلـغَ الرّابعـة، كانـتْ طريـقُ أولاد الحـارة في عصـارى الأيّـام تقـودُ إلى الشـيخ عـلي، كان شـيخَ المسـجد العثـماني القديـم، يـأتي مـن الجبـل، يركـبُ حِمـاره، لا أزال أرى رجلَيـه إلى اليـوم تهمِـزان بطـن الحِـمار لكـي يُسرع، وأرى عِمامتـه الّتـي لم يكـنْ يخلعهـا لا في صيـفٍ ولا شِـتاء، وعَصـاه الّتـي كان يهـشُّ بهـا عـلى غنِمـه، وكُنّـا نحـنُ الأطفـالَ

الصّغـار غَنَمـه! كان يجلسُ في دارٍ عتيقـة، تقـع قُبالـة المسـجد، لا يفصـل بينهـا إلاّ عُـرض الشّـارع، وخلـفَ الـدّار حاكـورةٌ صغـيرة كانـت مُحرّمـةً عـلى لَعِبنـا، وحَمّامـات مُعتِمـة تمتلِـئ بالعناكـب والحـشرات والسّـحالي، لم أرهـا تُضـاء مـرّة واحـدة، ولم نكـنْ نجـرؤ أنْ ندخلهـا. أمّـا الّـدار الّتـي كان يجلـسُ فيهـا الشّـيخ عـليّ فكانـتْ مُضـاءةً بشـكلٍ جميـل، كان نـور الشّـمس يأتيهـا مـن شـبابيكها العاليـة جهـة الـشّرقٍ، فتسـقطُ تلـك الأشـعّة الدّافِئـة في الربيـع عـلى الجواعـد والبُسُـط العتيقـة المصنوعـة مـن شَـعر الأنعـام والخِـراف فتزيدُنـا دفِئًـا. وكُنّـا نجتمـع بـين يدَيـه مـن عشريـن إلى ثلاثـين طفـلاً، أكبرنـا لم يتجـاوز السّادسـة، فنجلسُ في حلقـةٍ بيضاويّـة عـلى أطـراف المجلـس، ويتّكِـئ هـو عـلى مُتّـكآتٍ أُعـدّتْ لـه في صـدر هـذا المجلـس، ونبـدأ الـتّرداد خلفَـه، كُنّـا نـردّد خلفَـه قِصـار السّـور في البدايـة، ثُـمّ صـار يمـضي صاعِـدًا حتّـى انتهـى بِنـا إلى سـورة (التّكويـر)، لم يكـنْ يُطربنـي فيـما أردّده خلـفَ الشّـيخ أكثـر مـن الإيقـاع، النّهايـات المُمَوسـقة في الآيـات لا يُمكـن أنْ أصـف اليـوم كيـفَ كانـتْ تهتـزّ لهـا جوارحـي، وكنـتُ أغمـضُ عينَـيّ وأنـا أتلـو هـذه النّهايـات لأحتفـظَ بأكثـرَ زمـنٍ للمتعـة في تردادهـا. ولمْ يكـنْ للشّـيخ راتـبٌ يتقاضـاه مـن وراء تعليـم أولاد القريـة، كان الآبـاء يبعثـون مـع أولادهـم إليـه (قرامـي) الحطـب؛ ليُدفِـئ بهـا عِظامـه الّتـي وهنـتْ لسِـنّه، وكانـوا يبعثـون كذلـك البيـض والخبـز والخبيصـة الّتـي كانـتْ تصنعهـا جـدّتي (بهيّـة) مـع القريـش، وإذا كان الزّمـان جميـلاً، والوقـتُ عيـدًا فكُنّـا نأخـذ لـه (قـراص العيـد). كان الشّـيخ عـليّ مَهيبًـا، مُمتلـئ الجسـم، يميـلُ إلى الطّـول، كَـثّ اللّحيـة، حليـقَ الشّـاربَين، بيـاض لحيتـه الطّويلـة زاده هيبـةً في عيوننـا، وكان إلى ذلـك هادِئًـا، يبتسـم أحيانًـا، وإنْ كان يقتصـدُ في ابتِسـامته حتّـى لا ينفلـتُ الأمـرُ مـن بـين يديـه، وخصوصًـا أنّ أعدادَنـا كانـتْ كثـيرة، وكان يلبـسُ قفطانًـا أزرق، نظيفًـا، ينسـدل عـلى جسـمه ويلفّـه لـفّ اللّحـاء لجـذع الشّـجرة، وكان حاجِبـاه غليظَـين يُشبِـهان جناحَـي طائـرٍ مُهاجـر. وكُنّـا إذا أخطـأ أحدنـا في القـراءة يُوقفـه قائِـلاً لـه:

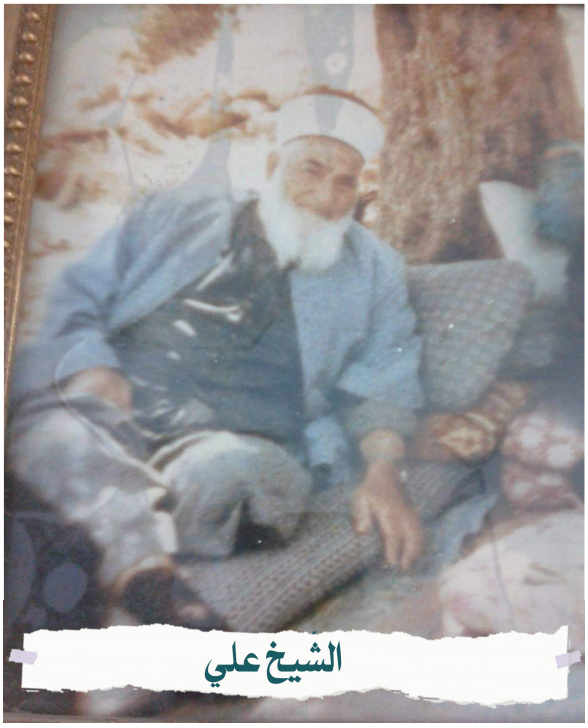

«بَورّت»، والتّبوير عند الفلاّحين الخروج عن خطّ الحراثة المُستقيم، أو التّعتع فيه، فيُصحّح لنا، ونُعيدُ من خلفه ما صَحّحه، وكُنّا إذا رفعْنا في القراءة أو نصبْنا ما حَقُّه الجرّ يقول لنا: «جُرّها يا ولدي، الكسرة تجرّ الجَمَل». اليوم يُمكِنكم أن تعرفوا الشيخ علي أكثر وحماره إذا قرأتم رواية (صوت الحمير).

بدأتُ بحفظ القرآن والحديث والشّعر وأنا في الخامسة. كنتُ أجدُ متعةً في تَرداد حروف العربيّة الّتي بدأتْ تسكنُ جوارحي. الآن أقول لكم: إنّ ما يُقال عن أنّ الحفظَ لا قيمة له ولا فائدة تُرجَى منه حسب النّظريّات الحديثة في التّعلّم هو أمرٌ غير صحيح ألبتّةَ، ولم يحدثْ في حالتي على الأقلّ، ولا في حالة العُلماء الّذي سَطّروا أسماءَهم في سِفر الخلود، كلّهم كان لديهم في البدايات مخزون معرفيّ اتّكأ على الحِفظ، واستطاعوا بخبراتهم وقُدراتهم واستِعداداتهم الفطريّة أنْ يصوغوا من ذلك الماء في تلك البئر العميقة أفكارَهم.

وصدقَ مَنْ قال:

تكتُبُ العِلْمَ وتُلقِي في سَفَطْ
ثُمَّ لا تَحفظُ لا تُفلِحُ قَطْ
إنّما عِلْمُكَ ما تَحْفَظُهُ
مَعَ فَهْمٍ وَتَوَقٍّ لِلغَلَطْ

حفظتُ في البداية قصيدة (دين وعروبة) لهاشم الرّفاعي، الّتي مطلعُها:

أيّها السّائِرُ بينَ الغَيْهَبِ
عاثرَ الخَطْوِ جَلِيّ التَّعَبِ
ضارِبًا في لُجّةٍ غامِضةٍ
من مُحيطِ العالَمِ المُضطَرِبِ

وغنيٌّ عن القول أنّني لم أكنْ أعرفُ ما الغيهب؟ وما اللُّجّة؟ ولكنّني كنتُ أشعر بالتّهادي مع العالَمِ المُضطرب! تهادٍ لا يُفسَّر ولا يُقال، ولكنّه يُحسّ! ثُمّ إنّني أتقنتُ الترنّم بها أمام أبي، وكان يطلبُ منّي أنْ أُلقِيَ منها أبياتًا بين فترةٍ وأخرى، ومع الشِّعر بدأتُ معه منذ القصيدة الأولى أحفظُ القرآن، وخلال أشهر كان أبي يعرضني أمام أصدقائه وأنا أتلو لهم ما تيسّر من جزء عمّ. وكنتُ أستظهره بسهولة، ولم يكنْ ذلك ليكون لولا أنّني كنتُ أجدُ في الإيقاع الإلهيّ المُستكنّ في الآيات لذّة غريبةً، ومتعةً ساحرة، فأتلو الآيات وأنا أتنغّم بها مُتلذِّذًا.

ثُمّ حفظتُ كلّ ما وَقَعَ تحتَ يديّ من شِعرٍ في تلك السّنوات، كنتُ أحفظُ قصائد المناهج الدّراسيّة كاملةً وكانتْ هناك أربع قصائد في كلّ فصلٍ دراسيّ، ثُمّ لم تشفِ تلك المناهج شَغَفي لحفظ الشّعر، فحفظتُ من ديوان المتنبّي وجرير والبحتري وأبي تمّام وأبي العتاهية

وأبي العلاء المعرّي وذي الرُّمّة وأبي فراس الحَمْداني مِئات الأبيات وأنا ما زلتُ في الابتِدائيّة، ولم تكدْ تلكَ المرحلة تُولّي وجهها شطر الإعداديّة حتّى كنتُ أحفظُ أكثرَ من ألفِ بيتٍ من أَجْودِ الشّعر مِمّا انتقاه لي أبي وانتقيتُه لنفسي، فلمّا دخلت الثّانويّة أُغرِمتُ بتخصّص أبي في الشّعر الجاهليّ، فأكببتُ على المُعلّقات وعلى ديوان حاتم الطّائيّ وامرئ القيس وعنترة بن شدّاد والشّنفرى، ولَطالَما أطربني عنترةُ من بينِهم بشعره السّلس ومعانيه الّتي جعلت من عِزّة النّفس شُعورًا يترسّخ في وُجداني، ولقد شممتُ رائحة الصّحراء وعُواء الذّئاب وإرنانة القوس في لاميّة الشّنفرى يومئذٍ، ثُمّ لان القلبُ من بعدُ فدخل إلى دائرة المحفوظ أحمد شوقي وخليل مُطران وإلياس شبكة وإيليا أبي ماضي وميخائيل نُعيمة، وحافظ إبراهيم، وأبي القاسم الشّابّي، والجواهريّ، ومُحمّد الزّبيريّ، والبَرَدُّوني، وبدوي الجبل، وعبد الرّزّاق عبد الواحد، وأحمد مطر، ومُظفّر النّوّاب... فلمّا انفتحتْ بوّاباتُ القلب على الحبّ في نهايات الثّانويّة أضفتُ إلى محفوظي مئات الأبيات لنزار قبّاني. حتّى إذا ودّعتُ أبواب المدرسة إلى بدايات الجامعة كنتُ قد أتممتُ حِفظَ أكثر من عشرة آلاف بيتٍ من الشّعر القديم والحديث.

كنتُ أحفظُ القصيدة من قراءَتَين، كانتِ القراءةُ الأولى قراءةَ استِكشاف، وكانت القراءةُ الثّانية قراءةَ استِلهام وترنّم، كان التّرنّم بالشّعر ديدَني، وكان وسيلتي الفَعّالة للحفظ... خُلِطتْ هذه البحور الشّعريّة كلّها، وهذه الأوزان المُوسيقيّة أجمعها، وهذه الإيقاعات الطّروبة في عقلي ووِجداني، وراحتْ هذه التّرنّمات - فيما يبدو - تستنهضُ طائر الشِّعر النّائم في أعماقي، أو قل تُوقِد شُعلة الشِّعر المُقدّسة. ذلك الشّاعر الرومانسيّ الحالم سوف ينهضُ فِيَّ في مرحلةٍ مُبكّرة من الإعداديّة.

شكّلتْ ساحة (الحنّاوي) الّتي كُنّا نلعبُ فيها نحن أطفال القرية ونقضي فيها جُلّ أوقاتنا - إذْ لم يكنْ هناك من تلفازٍ ولا إذاعة، وبالطّبع لم يكنْ هناك هاتف من أيّ نوعٍ ولا تلك الهواتف الأرضيّة منها حتّى يكون الذّكيّة منها الّتي تملأ أيادي النّاس اليوم - أقول شكّلتْ تلك السّاحة مِخيالَنا، فاحتلّ المكان جزءًا من قلوبنا، وكان يشدّنا إليه بخيط الحنين كلّما ابتعدْنا عنه مع مرور الأيّام، ثُمّ جاء الجبل ومزارع أعمامي وجدّي وشهور الصّيف فرفع ذلك المستوى من إيحاء المكان في روح الكاتب

المسجد العثماني القديم

الّـذي سـأكونُه، فلقـد كان عمّـي (عقلـة) يأخذنـا إلى (الظَّهْـرة) حيـثُ حقـول الزّيتـون والكـروم والأشـجار المُثمـرة، وكنّـا نقـضي ثلاثـةَ أشـهرٍ بـين الجبال. وثلاثـةُ أشـهر مـع الطّبيعـة الخالية مـن أيِّ ملوّثات كانـتْ كفيلةً بزيادة مسـاحة الأسئلة في عقـلِ طفـلٍ حالمٍ يتسـاءل عـن سِرّ هـذا الوجـود كلّه، فـماذا تعلّمتُ مـن الجبـال في النّهـار، ومـاذًا تعلّمـتُ من السّـماء والنّجـوم في اللّيـل؟ لقد كان لهـما أثـرٌ كبيرٌ في مخيالي الشّـعريّ والنّثريّ، ولا زلـتُ أعودُ إليهما لأسـتلهم تلك الأيّـام الغابـرة فأمتـح منهـا مـا يُعيـدُ إليّ ألَـقَ الكتابـة.

حـينَ كانـتْ سـاحة (الحنّـاوي) تضيـقُ بنـا، إذْ كان عـددٌ مـن الأطفـال يـأتي مـن الحـارات الأخـرى، كُنّـا نتوجّـه إلى سـاحةٍ أكـبر لنعلـب كـرة القـدم، كان هنـاك ملعـبٌ تـرابيّ يضـمّ شـتاتَنا، اكتشـفتُ فيـما بعـدُ أنّـه يجثـم فـوقَ القبـور الدّارسـة مـن الجهـة الشّـماليّة للمقـبرة القديمـة، كان مُسـوًّى بـالأرض، فلـم أشـكّ أنّـه جـزءٌ مـن المقـبرة، ومـع أنّ الكـرة كانـت تتقافـز بـين شـواهد القبـور حـين نركلهـا بعيـدًا، إلاّ أنّـه لم يَـدُرْ في خَلَـدي أنّنـا كُنّـا نُقلِـق راحـة الموتـى، ونـدوس بأقدامنـا العاريـة عِظامهـم الرّميمـة!

نشـأتُ بـين عارضتَـي المسـجد العثـمانيّ القديـم في قريتنـا (سـوف). كانـت ليـالي رمضـان في المسـجد القديـم وحلقـات حفـظ القـرآن فيـه لا تُنسـى. وليـالي القِيـام لهـا طعـمٌ لا يُمكـن أن أتجـاوزه إلى اليـوم. مـا زال إلى اليـوم يـرنّ في أذنيّ إيقـاع الآيـة الّتـي تتكـرّر في سـورة الرّحمـن: (فبـأيّ آلاء ربّكـما تُكذّبـان)، لا شَـكّ أنّ الكلـماتِ وإيقاعَهـا كانـا يهزّانـي مـن الأعـماق، ولا شَـكّ أنّ كيـاني كلّـه كان يتشـكّل عـلى ذلـك الإيقـاع العجيـب!

لم تكـفّ إيقاعـات اللّغـة - وخاصّـة القـرآن والشّـعر - عـن إبْهـاري لحظـة، لكـنّ البدايـات الأولى مـن طفولـةٍ لَبِـسَ بهـا النّسـيانُ ثوبَـه كانـتْ في الجبـال البعيـدة، وكان ذلـك يقـع مـن خـلال لعبـةٍ اسـمُها (لُعبة الصّـدى)، في وادٍ مُخيـف، وغائـر اسـمُه (وادي المِصريّـة)، كنـتُ أقـف في أعـلى الـوادي بـين منفرجَـي جبلَـين شـاهِقَين، وأبـدأ أصيـح بالآيـات أو الأبيـات الّتـي أحفظُهـا فيرتـدُّ إليّ صـدى صـوتي، فأُعجـب بذلـك الصّـوت العميـق الّـذي يعزفـه فـمُ

الجبـل، فأُعيـد الكَـرّة، وأقـذف في بطـن الـوادي بكلـماتٍ سـاخرة، فأضحـك، فيـتردّد صـدى ضحكتـي مـع كلـماتي فـأكادُ أُجـنّ مـن المتعـة. ثُـمّ قالـوا لي إنّ هـذا الـوادي هـو وادي الجـنّ، وإنّـه إذا رميـتَ عليهـم الحجـارة فسـيأخذون تلـك الحجـارة ويرمونهـا عليـك ثانيـةً. وأحببـتُ أنْ أجـرّب ذلـك، ولكـنّ الخـوف منعنـي في البدايـة، حتّـى تجـرّأتُ مـرّة ففعلتُهـا، كان ذلـك مسـاءَ يـومٍ مـن أيّـام الجبـل الطّويلـة، تسـلّلتُ مـن الخيمـة البعيـدة الّتـي ننـام فيهـا في مسـيرةٍ شـائكةٍ وطويلـة، حتّـى إذا وصلـتُ إلى الـوادي، بـدأتُ معـه لعبـة الصّـدى، ففرحـت، ثُـمّ خطـر ببـالي أنّ الّذيـن يـردّدون صـوتي هـم الجـنّ أنفسـهم الّذيـن يرمـون الحجـارة، فدخلنـي الفَـزَع، وهممـتُ بالعـودة، وكنتُ وحـدي، ولكنّنـي حدّثـتُ نفسـي: لقـد قطعـتَ هـذه المسـافة كُلّهـا لتحظـى بهـذه التّجربـة الفريـدة، ومـن الجُبـن أنّ تعـودَ دون ذلـك. وبالفعـل التقطـتُ بعـضَ الحجـارة، وبخفقـاتِ صـدري السّريعـة الّتـي جعلـت الحـرارة تصعـدُ إلى رأسي رميـتُ الحجـر الأوّل، وتوقّفـتُ أراقـبُ مـا يحـدث، حتّـى إذا مـرّ وقـتٌ دون أنْ يحـدث شيءٌ، بـدأتُ أصيـح: إنّهـم يكذبـون، يريـدون فقـط إخافتَنـا، ليـس في الـوادي غـير الصّـدى، لا جـنّ ولا عفاريـت ولا أيّ شيءٍ آخـر، ورحـتُ أرمـي الحجـارة تِباعًـا فرحًـا بانتِصـاري عـلى الخـوف، غـير أنّنـي في لحظـةِ انغـماري في المشـهد، توقّفـتُ قليـلاً، إذْ سـمعتُ صوتًـا قادِمًـا مـن الـوادي، وبـدأ الرّعـب ينسـاح في جوارحـي، ثُـمّ شـعرتُ أنّ الحجـارة الّتـي رميتُهـا وطوفانًـا آخَـرَ منهـا يتوجّـه نحـوي، فـدبّ الرّعـب في أوصـالي، وصدّقـتُ أنّ الجـنّ هـي الّتـي ترمـي بهـا عـليّ، فأطلقـتُ سـاقَيّ للرّيـح لا ألـوي عـلى شيْءٍ.... اليـوم يُمكنكـم أنْ تـروا وادِيًـا شـبيهًا بهـذا الـوادي في روايـة (نفـر مـن الجـنّ)، وفي روايـة (ذائقـة المـوت).

كنّـا ننتظـرُ يـوم الجمعـة، وكان دينـارٌ واحـدٌ كفيـلٌ بـأن يُـولِمَ لعائلتنـا الّتـي كانـت تتكـوّن آنـذاك مـن سـتّة أفـراد. رائحـة الدّجـاج المطبـوخ. صـوت الدّجـاج قبـل الذّبـح. تنظيـف الدّجـاج، والظّفـر بدجاجـة مُنظّفـة مـن أجـل وليمـة الغـداء. كُنّـا نـأكل لحـمَ الدّجـاج مـرّة واحـدةً في الأسـبوع،

وكان يـومَ عيـدٍ، يرافقـه صحـنٌ مـن مقـالي الباذنجـان عـادةً مرشـوشٌ فوقَـه كمّيّـة وفـيرةٌ مـن السُّـمّاق البلـديّ.. ولـو أنّنـي خُـيّرت بـينَ مـا نأكلـه اليـومَ مـن شـهيّ الطّعـام وتنوّعـه حتّـى فقـدَ لذّتـه، وبـينَ مـا كُنّـا نأكلـه في أواخـر السّـبعينّيات مـن القـرن الفائـت، لاخـترتُ ذلـك الطّعـام الّـذي كانـتْ تُطيّبـه العافيـة، ونشـعر بقيمـة وُجـودِه، ونُـؤدّي فيـه شُـكر نِعمتـه.

عَلّمَتْنـي في الرّوضـة مُعلّمـة اسـمُها (نَفَـل)، كانـتْ ودودةً جِـدًّا وحنونـة، كانـت الرّوضـة عبـارة عـن رِواق طويـل، عـلى جانبـه الأيـسر فقـط عـلى مـا أذكـر ثلاثـة غـرف صَفّيّـة، وأمامهـا سـاحةٌ صغـيرة، كانـت المعلّمـة (نَفَـل) عزبـاء يومَهـا، فكانـتْ تعتبرنـا أولادَهـا، فتحنـو علينـا وتهتـمّ بنـا اهتِمامًـا مُبالَغًـا، وكانـتْ تنتـشر عـلى جـدران الـرّواق الطّويـل رُسُـوماتٌ جميلـة، أكثرهـا للطّبيعـة، وللأطفـال وهـم يتعلّمـون، ولا أدري إنْ كانـتْ هـي التّـي ترسُـمُها أم لا؟! كان مـصروفي اليومـيّ في الرّوضـة (قرطـة) واحِـدة أي مـا يُعـادل (قرشـين ونصـف القـرش) وهـو رقـمٌ ممتـاز في ظـلّ أولادٍ تُعطيهـم أُسَرهـم بـدلاً مـن المـصروف سندويشـةً أو بيضـةً مسـلوقةً، وآخريـن لا يأخـذون لا البيـض ولا الخُبـز ناهيـك بالحصـول ولـو عـلى قـرشٍ واحـدٍ في اليـوم، لكـنّ هـذه (القرطـة) الّتـي كنـتُ آخذهـا، لم أكـنْ أنفقهـا، بـل كنـتُ أخبّئهـا عنـد معلّمتـي (نفـل)، ولمّـا انتهـى ذلـك العـام كان لـديّ في رصيـدي مـا يقـرب مـن سـبعة دنانـير، وهـو رقـمٌ مَهـول قـادرٌ عـلى أنْ يشـتري خروفًـا في تلـك الأيّـام!

مـا بقـي عالِقًـا مـن زمـن الرّوضـة السّـحيق شـيئان؛ طعـم المجـدّرة الّتـي كانـتْ تُعدّهـا لنـا (نَفَـل) بنفسِـها، وكانـتْ مـن ألـذّ مـا يأكلـه طفـلٌ وأشـهاه، والأناشـيد الّتـي كنـتُ أتحمّـسُ في الـصّراخ بهـا حتّـى تـكاد تنشـقُّ لها حنجرتي.

في عـام ١٩٧٨م سـافر أبي إلى مـصر ليُتابـع دراسـته في مرحلـة الدّكتوراة في اللّغـة العربيّـة في جامعـة القاهـرة، وأخـذ العائلـة كلّهـا معـه، كانـتْ مـصر